

الطقوس: "الدرع الحامي" لتماسك المجتمعات

ليست الطقوس مجرد أنماط سلوكية مكررة أو شعائر شكلية تفرضها العادات؛ بل هي "اللغة الرمزية" التي يصيغ بها المجتمع هويته ويستحضر من خلالها تاريخه وتراثه وثقافته. إنها الخيوط الخفية التي تشد أواصر الأفراد، وترسخ الهوية الجماعية في نسيج واحد لا ينفصم. في زمن السرعة والتفكك الرقمي، تظل الطقوس الملاذ الأخير الذي يحمي الإنسان من الشعور بالغربة عن نفسه وعن جماعته.

ما هي الطقوس؟

يُعرّف الطقس (Ritual) بأنه: «مجموعة مرتبة من الأفعال والكلمات والرموز التي تُؤدّى في سياق محدد، وتتميز بالتكرار والنمطية، وتهدف إلى خلق حالة من القدسية أو التميز عن الحياة اليومية، لتعزيز الروابط الاجتماعية ونقل القيم الجوهرية للجماعة». الطقس إذن ليس مجرد "عادة"، فالعادة قد تكون فردية وعملية مثل روتين الاستيقاظ أو الذهاب للعمل، أما الطقس فهو جماعي ورمزي بالضرورة؛ إذ لا يُشترط فيه تحقيق فائدة مادية مباشرة، بقدر ما يهدف إلى تحقيق "إشباع روحي" وتأكيد مستمر على وحدة الكيان الاجتماعي أمام تحديات التفكك.

وظيفة الطقوس

تُعد الطقوس المكون العملي للأديان؛ فمن خلالها - كالصلاة والصوم والحج - يتحول الإيمان من عقيدة فردية إلى تجربة اجتماعية مشتركة. وتكمن وظيفتها الكبرى في تجسير الفجوة بين العبد وخالقه، حيث

يلتقي فيها الجانب الاجتماعي بالجانب الروحي، حيث يحدث «الفوران الجماعي» عند الاجتماع على طقس موحد.

ويظل الحج أروع مثال حيّ على الطقس الإسلامي الذي يجمع كل وظائف الطقوس في صورة واحدة متكاملة. فمنذ لحظة الإحرام يدخل المؤمن في حالة رمزية تذيب كل الفوارق: يخلع ثياب الدنيا ويلبس رداءً أبيض موحدًا، فيقف الملك والفقير والعالم والأمي جنباً إلى جنب، متساوين أمام الله. هذا الطقس ليس مجرد حركات جسدية؛ إنه إعادة إحياء حياة لقصة يقينية تاريخية: طواف الحجّاج حول الكعبة يعيد مشهد إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وهما يبنيان البيت، والسعي بين الصفا والمروة يستحضر صبر هاجر، والوقوف بعرفة هو ذروة «الفوران الجماعي» الذي تحدث عنه دوركهيم، لكنه هنا مبني على نور الحقيقة لا على خيال أسطوري.

هذا التلاحم يُعيد بناء الهوية الجماعية ويجدد العهد مع الله والتاريخ في آنٍ واحد. إن الحج إذن ليس طقساً شكلياً، بل تجربة تحويلية شاملة تجمع بين الجسد والروح والمجتمع. هو الطقس الذي يجسّد التميز الإسلامي؛ لا يعتمد على أسطورة متخيلة، بل على حقيقة تاريخية ثابتة تُعاد إحيائها كل عام، فتظل الأمة متماسكة، متجددة، محصنة ضد التفكك والتيه.

الأسطورة، ما هي؟

عند الحديث عن الطقوس، يبرز مصطلح "الأسطورة" كحلقة وصل أساسية. التعريف المنضبط للأسطورة في علم الأديان هو: «سرد مقدس يفسر أصول العالم، أو القيم الكبرى للمجتمع، من خلال قصص رمزية تتجاوز الزمن الواقعي». في الإسلام يحل الدين محل هذه الأساطير بيقين الوحي والحقيقة التاريخية. فطواف الحج ليس تمثيلاً لأسطورة غامضة، بل هو "إعادة إحياء" لقصة يقينية عاشها نبي الله إبراهيم وإسماعيل عليهما

السلام. لقد استبدل الإسلام "خيال الأسطورة" بـ "نور الحقيقة"، فأصبح الدين هو السردية العظمى التي تمنح الطقوس روحه وقداسته.

أهمية الطقوس

لم تقتصر أهمية الطقوس على الجانب الاجتماعي والروحي فحسب، بل أثبتت الدراسات النفسية والعصبية الحديثة أنها تمتلك تأثيراً بيولوجياً ملموساً على صحة الإنسان النفسية والعاطفية. فعالم اليوم الذي يتسم بالقلق المزمن واللايقين، يُعد أداء الطقوس بمثابة «درع حامٍ» يمنح الفرد شعوراً بالسيطرة والثبات وسط الفوضى. أظهرت بحوث من جامعة هارفارد أن إجراء طقوس بسيطة ومنظمة قبل أداء مهمة مرهقة - كالامتحان أو المقابلة المهنية أو حتى الخطاب العام - يخفض معدل ضربات القلب ويقلل مستويات هرمون الكورتيزول (هرمون التوتر) بنسبة ملحوظة. السبب علمياً بسيطاً: الطقوس يحول انتباه الدماغ من الخوف المستقبلي إلى الإجراء الحاضر المنظم.

وتؤكد دراسات أخرى، مثل أعمال ناتالي هوبسون وزملائها، أن الطقوس الجماعية تزيد إفراز هرمون الأوكسيتوسين - «هرمون الترابط» - مما يعزز الشعور بالانتماء ويقلل الشعور بالوحدة والعزلة النفسية. كما أنها تحسن الذاكرة العاطفية وتعزز القدرة على التحمل النفسي أمام الصدمات. هذه النتائج تثبت أن الطقوس حاجة بيولوجية أساسية.

حتمية الطقوس

ومن المثير للتأمل أن الطقوس لا تقتصر على التدين العقدي فحسب، بل تمثل ضرورة اجتماعية وبيولوجية عميقة. فلو اجتمع الملحدون في مجتمع واحد، لاحتاجوا بالضرورة إلى طقوس بديلة تضمن تماسكهم الجماعي. وقد أشار إميل دوركهايم إلى أن المجتمعات العلمانية تخلق «ديناً مدنياً» تكون طقوسه الأعياد الوطنية والاحتفالات الجماعية، معتبراً إياها «الصمغ الاجتماعي» الذي يربط أفراد المجتمع ويحافظ على وحدتها؛ لأن الإنسان كائن طقوسي بطبعه.

في الختام

تبقى الطقوس هي الجسر الأخير الذي يعيدنا إلى إنسانيتنا المشتركة. إنها تذكرنا بأننا لسنا مجرد أرقام صماء، بل أصحاب قصة مشرفة نرويها معاً. من يحافظ على طقوسه يحافظ على كينونته؛ فهي الحصن الذي يحمي المجتمعات من التيه والانحلال، والروح التي تمنح الحياة معناها السامي. وفي زمن التحديات الرقمية، يصبح الحفاظ على هذه الطقوس واجباً يضمن بقاء الأمة متماسكة.